موانع تدبر القرآن

عند مدارس القراءات

المعاصرة للنص وعلاجها

إعداد

محمود علي أحمد علي صالح

مقدمة

الحمد لله رب العالمين؛ والصلاة والسلام على أشرف المرسلين؛ وعلى آله؛ وصحبه؛ وسلم تسليماً مزيداً إلى يوم الدين؛ ثم أما بعد:

فلا شك أن القرآن الكريم شفاء لأمراض الشبهات والشهوات ؛ كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧﴾ [يونس: ٥٧] ؛ وقال سبحانه: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ٨٢﴾ [الإسراء: ٨٢]

قال الشيخ السعدي رحمه الله تعالى: "القرآن شفاء لما في الصدور من أمراض الشهوات الصادة عن الانقياد للشرع؛ وأمراض الشبهات القادحة في العلم اليقيني"(١).

وما أجمل ما قاله الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى متحسراً على انصراف الناس عن الاستشفاء بالقرآن الكريم: "فهذا كتاب الله هو الشفاء النافع؛ وهو أعظم الشفاء وما أقل المستشفين به !! بل لا يزيد الطبائع الرديئة إلا رداءة ولا يزيد الظالمين إلا خساراً "(٢).

ومن أعظم الاستشفاء بالقرآن الكريم: الاستشفاء به من شبهات الأفكار؛ وضلال المذاهب المعاصرة؛ ولذا كان لزاماً على العلماء والدعاة وأهل الاختصاص أن يعالجوا شبهات العصر بآيات القرآن الكريم؛ ويمهدوا السبل لتداوي الناس بالقرآن.

ومن تمهيد الطريق لإزالة شبهات الأفكار المعاصرة جاء موضوع هذه الورقة البحثية المقدمة إلى المؤتمر العالمي الأول لتدبر القرآن الكريم المنعقد بالدوحة :

موانع تدبر القرآن عند مدارس القراءات المعاصرة للنص وعلاجها

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٣٦٧)؛ وانظر: أنواع شفاء القرآن في: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير لابن باديس؛ ص ١٤١.

(٢) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/ ٢٥٠)

أسأل الله تعالى أن يكون هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم؛ معيناً على تسليط الضوء على هذا الموضوع المهم الذي ما زال بحاجة إلى جهود الباحثين المتخصصين في إثرائه.

المبحث الأول: مفهوم التدبر والقراءات المعاصرة للنص

المطلب الأول: مفهوم التدبر:

معنى (د ب ر) في اللغة العربية يدور على العاقبة والمؤخرة؛ و التدبر: التدبر تصرف الْقلب بِالنّظرِ فِي العواقب [(١)].

قال ابن فارس رحمه الله تعالى: "أصل هذا الباب أن جله في قياس واحد، وهو آخر الشيء وخلفه خلاف قبله" [(٢)].

وأما في الاصطلاح؛ فمن المهم التأكيد أن المؤلفين في علوم القرآن لم يصطلحوا على تعريف محدد للتدبر؛ ولكن يمكن تعريفه بأنه: " التفكر في الآيات، والتأمل الذي يفضي بصاحبه إلى النظر في عواقب الأشياء"[(٣)].

والملاحظ أن هذا التعريف للتدبر تقريبي؛ وإلا فقد نص العلماء على الفرق بين التدبر والتفكر؛ فكيف يعرف أحدهما بالآخر[(٤)].

المطلب الثاني: المراد بالقراءات المعاصرة للنص.

القراءات المعاصرة مصطلح كثر استعماله في السنوات الأخيرة من بعض الكتاب؛ يريدون به: استخدام النظريات الحديثة في التعامل مع القرآن الكريم[(٥)].

---

(١) انظر: لسان العرب (٤/ ٢٦٨)؛ الفروق؛ ص ٧٥.

(٢) مقاييس اللغة (٢/ ٣٢٤).

(٣) هذا تعريف أبي حيان في تفسيره للتدبر؛ انظر: البحر المحيط (٣٣٨/٩).

(٤) قال العسكري رحمه الله تعالى: "الْفرق بَين التفكر والتدبر: أَن التدبر تصرف الْقلب بِالنّظرِ فِي العواقب والتفكر تصرف الْقلب بِالنّظرِ فِي الدَّلَائِل" الفروق اللغوية للعسكري (ص: ٧٥).

(٥) انظر: نظرات في القراءة المعاصرة للقرآن الكريم في دول المغرب العربي؛ ص ٥؛ بحث مقدم لمؤتمر القراءات المعاصرة للقرآن الكريم المنعقد في جامعة شعيب الدكالي في المغرب.

وقد لجأوا إلى استخدام مصطلح القراءات بدلاً من مصطلح التفسير والتأويل والفهم ونحوها من المصطلحات المستخدمة عند العلماء للتعامل مع النصوص القرآنية ؛ ومحاولة فهمها؛ وذلك لأن مصطلح القراءة يحمل اتساعاً يجعله يتضمن ما يندرج ضمن التفسير وما لا تعلق له به مما هو من قبيل تطبيق مناهج معاصرة على القرآن الكريم كالقول بنسبية القراءة ؛ وعدم وجود معنى أو دلالة ثابتة للنصوص؛ ولا نهائية المعنى[1].

(١) انظر: العلمانيون والقرآن الكريم؛ أحمد الطعان؛ ص ٤٢٤- ٤٢٩.

المبحث الثاني: موانع تدبر القرآن العامة عند مدارس القراءات المعاصرة للنص

والموانع العامة المراد بها الموانع التي تمنع من تدبر القرآن؛ وتشترك فيها مدارس القراءات المعاصرة للنص مع غيرها ممن لا يتدبرون القرآن الكريم.

المطلب الأول: ضعف تعظيم القرآن الكريم.

من أبرز موانع تدبر القرآن الكريم عند أفراد مدارس القراءات المعاصرة للنص ضعف تعظيمهم للقرآن الكريم؛ ويتضح ذلك الضعف في تعظيم القرآن الكريم من عدة جوانب:

الجانب الأول: عدم التصور الصحيح للقرآن الكريم:

ومن الظاهر أنه لا يمكن لمن لا يتصور ما هو القرآن الكريم حقاً أن يتدبره حق التدبر؛ كما أن عدم تصور ماهية القرآن الكريم هي إضافة إلى التقصير العلمي البحت أمارة على نقص تعظيمه؛ ومما يبين عدم تصور أفراد مدارس القراءات المعاصرة للنص ماهية القرآن الكريم على التحقيق قول الدكتور هشام جعيط معرفاً القرآن، حيث قال: " ومفهوم (القرآن) ذاته أكثر أهمية، ويصعب تفسيره، إلا أنني ألفت النظر إلى تباينه مع عبارة (الكتابات المقدسة) أو (الكتاب المقدس)، المحتوية على التراث اليهودي – المسيحي، والمشيرة إلى فكرة المكتوب في صحف. بينما القرآن يشير إلى ما هو شفوي (يتلى) بالرغم من أنه أيضاً كتاب ليس على شكل المكتوب ولا حتى على شكل الوحي المكتمل، إذ يصف نفسه بأنه الكتاب من الأول تقريباً لكن مفهوم الكتاب في العربية القديمة يعبر عن الكتابة والمكتوب معاً كما ورد في حديث بخصوص معاوية (اللهم علمه الكتاب والحساب). فإما أن يكون القرآن كلاما سرمدياً و (أركتيباً)[1]، وإما أن أي جزء منه يمثل الكتاب كله وهو الكتاب كله" [2].

وهكذا، فالدكتور هشام جعيط يرى أنه يصعب تعريف القرآن؛ وقد جعل وسيلة معرفة القرآن الكريم هي: " تباينه مع عبارة (الكتابات المقدسة) أو (الكتاب المقدس)، المحتوية على التراث اليهودي – المسيحي، والمشيرة إلى فكرة المكتوب في صحف. بينما القرآن يشير إلى ما هو شفوي (يتلى)" والحقيقة أن هذه المقابلة وإن كانت صحيحة لسنا بحاجة لها في معرفة معنى القرآن الكريم، فهي سلوك

---

(١) تستخدم هذه الكلمة بمعنى سرمدي وأبدي عند هشام جعيط، ولم أتمكن من معرفة لغتها الأصلية.

(٢) الوحي والقرآن، ص ١٧.

للطرق الضعيفة ؛توصلا إلى ماهية القرآن الكريم مع وجود أوصاف ظاهرة للقرآن تغني عن هذه الطرق، كونه معجزاً، متعبداً بتلاوته، كلاماً لله تعالى، منزلاً.

وممن عرف القرآن الدكتور محمد شحرور، حيث يقول: " القرآن هو مجموع الآيات المتشابهات التي تتحدث عن القوانين الكونية التي تحكم النجوم والكواكب والزلازل والرياح والمياه في الينابيع والأنهار والبحار، وعن قوانين التاريخ والمجتمعات التي تحكم نشوء الأمم وهلاكها، وعن غيب الماضي من خلق الكون وخلق الإنسان وأنباء الأمم البائدة (القصص القرآني)، وعن غيب المستقبل كقيام الساعة والنفخ في الصور والحساب والجنة والنار "[(١)].

وهذا التعريف فيه مآخذ متعددة، وهي:

الأولى: الدكتور محمد شحرور يفرق بين لفظي القرآن والكتاب، فيجعل الكتاب هو الآيات المحكمة والمتشابهة معاً، والقرآن هو الآيات المتشابهة[(٢)]، فيكون القرآن أخص من الكتاب عنده، ويكفي في بيان بطلان بعض الآراء حكايتها، ومع هذا فإنه يقال: إن العلماء لم يعرفوا القرآن بهذا التعريف، ولا يوجد في المعنى اللغوي للقرآن ما يفيد صلته بالتشابه لنعدها شبهة للدكتور محمد شحرور.

الثانية: ما ذكره الدكتور محمد شحرور تعريفا للقرآن هو عبارة عن الإشارة لبعض موضوعات القرآن[(٣)]، مع إغفاله لأمور مهمة يذكرها العلماء في التعريف، منها أنه كلام الله تعالى، وأنه معجز، وأنه متعبد بتلاوته.

---

(١) موقع الدكتور محمد شحرور، التعريفات والمصطلحات، على الرابط/
http://www.shahrour.org/?page_id=١٢

(٢) انظر: الكتاب والقرآن، ص ١٧، ٥١.

(٣) مع ملاحظة أن ما أورده الدكتور محمد شحرور من موضوعات قرآنية في تعريفه للقرآن هناك ما هو أولى منها في موضوعات القرآن الكريم، كالعناية بالتوحيد، وتقريره، وبيان الأحكام، والثواب والعقاب، ولكن الذي يلاحظ أن تخصص الدكتور محمد شحرور الأصلي في الهندسة المدنية يعلم سراً من أسرار عنايته بإيراد ما أورده من موضوعات في تعريف القرآن.

ولنقرأ محاولة أخرى لتعريف القرآن، يقول محمد أركون : " إن القرآن هو عبارة عن مجموعة من الدلالات والمعاني الاحتمالية المقترحة على كل البشر، وبالتالي فهي مؤهلة لأن تثير أو تنتج خطوطاً واتجاهات عقائدية متنوعة بقدر تنوع الأوضاع والأحوال التاريخية التي تحصل فيها أو تتولد فيها"[١].

وهذا التعريف تلحقه بعض الملاحظات السابقة، فهو يغفل أموراً كثيرة حقها أن يشار إليها عند محاولة تعريف القرآن الكريم، هذا من جانب، ومن جانب آخر ففيه هدم للغاية التي جاء القرآن الكريم لدعوة الناس لتحقيقها، وهي توحيد الله تعالى، إذ دلالات القرآن كما يقول محمد أركون "مؤهلة لأن تثير أو تنتج خطوطاً واتجاهات عقائدية متنوعة بقدر تنوع الأوضاع والأحوال التاريخية التي تحصل فيها أو تتولد فيها" وهذا مؤداه أن كل الاعتقادات الباطلة نابعة من دلالات القرآن، وهذا قول لم تقله فرقة من الفرق الضالة أصلاً، إذ كل فرقة حرصت على أن تدعي دلالة القرآن الكريم على اعتقاداتها وإبطاله ما سواها[٢].

الجانب الثاني: التعبير عن القرآن الكريم بغير أسمائه وأوصافه:

يعبر محمد أركون في كثير من كتاباته عن القرآن بالمدونة النصية المغلقة[٣]، وعن الآيات بالوحدات[٤]، وهذا التعبير مناف لأسماء القرآن وأوصافه، ولا شك أن تسمية القرآن أو وصفه بما لم يسم به أو يوصف من أبلغ الإساءة في الأدب.

ويجعل محمد أركون القرآن هو المقابل لاعتقادات النصارى في المسيح عليه السلام، فيقول:" الشيء الذي يقابل يسوع المسيح في الإسلام هو القرآن بصفته الكتاب المقدس الذي يحتوي على كلام الله الموحى به"[٥].

وفي هذا الكلام مغالطة ظاهرة مع ما فيه من سوء الأدب مع القرآن الكريم، ذلك أن جعل اعتقاد المسلمين في القرآن الكريم يساوي اعتقاد النصارى في عيسى عليه السلام ظاهر البطلان فالنصارى

---

(١) تاريخية الفكر العربي الاسلامي، ص ١٤٥.

(٢) انظر كلام الفرق في القرآن الكريم

(٣) انظر: القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب، ص ٨٢.

(٤) انظر: القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب، ص ١٤٦.

(٥) القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب، ص ٢٤.

يعتقدون أن عيسى (عليه السلام) إله أو ابن إله على خلاف بين طوائفهم في ذلك[١]، ولا أحد من المسلمين يرى مثل ذلك في القرآن، وعليه فلا وجه أصلاً لمثل هذه المقابلة.

وفي موضع آخر يعتبر محمد أركون أن الآيات القرآنية في قصة أصحاب الكهف بأنها مجرد عبارات لغوية ومعنوية مبعثرة! حيث يقول: " إذا ما وصنفا كل ما سبق بأنه مجرد تجاور بين عبارات لغوية ومعنوية متبعثرة، فإن ذلك يعني أننا نؤكد ضمنياً على أولوية المعايير البلاغية والمنطقية"[٢].

و وصف آيات القرآن الكريم بالعبارات المبعثرة غاية في سوء الأدب مع كتاب الله تعالى[٣].

أما هشام جعيط فإنه يعتبر القرآن سببا لحدوث الأهواء والفرق، فيقول: " لولا القرآن ولولا محمد وبناؤه للدولة الإسلامية وتشجيعه الضمني على الفتوحات، وبالتالي بناء الامبراطورية ودخول السياسة وأهوائها في اللعبة، لما وُجدت هذه الأهواء والفرق"[٤].

ومثل هذا الكلام البالغ السوء فيه وصف للقرآن الكريم وللنبي صلى الله عليه وسلم أنهما سبب وجود الأهواء والفرق، وإذا كان القرآن الكريم والنبي صلى الله عليه وسلم سببا في وجود الأهواء والفرق فمن هو السبب في اجتماع الأمة؟

وإنما أدرج مثل هذا الكلام لأبين موقف هؤلاء من القرآن الكريم، ومقدار أدبهم معه، وإلا فمثل هذا القول مما يتحرج المرء من مجرد حكايته، – والله المستعان– .

والحاصل أن أمثال هذه التصورات عن القرآن الكريم التي يحملها أفراد مدارس القراءات المعاصرة للنصوص ،لا شك أن لها أثرها المانع من تدبرهم للقرآن الكريم.

---

(١) انظر: الفرق والمذاهب المسيحية منذ البدايات حتى ظهور الإسلام، ص ٨٨، المسيح عند اليهود والنصارى والمسلمين، ص ١١١، النصرانية في الميزان، ص ٢٧٣.

(٢) القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب، ص ١٤٩.

(٣) ولهذا تعلق أيضاً بالمناسبة بين الآيات من جهة أخرى وسيأتي الحديث عن موقف العقلانيين من مناسبات القرآن مفصلاً.

(٤) الوحي والقرآن، ص ٩.

المطلب الثاني: الفهم الخاطئ لمعاني كلام الله تعالى.

من عوائق التدبر الكبيرة: الجهل بمعاني كتاب الله تعالى؛ وهو إما عدم العلم بمعناها أو العلم به على غير وجهه؛ وكلاهما متحقق في أفراد مدارس القراءات المعاصرة للنص؛ على المستويين النظري والتطبيقي:

المستوى النظري من الجهل بمعاني كتاب الله تعالى:

انتقاد فهم القرآن الكريم من خلال لغة العرب في الجاهلية:

فهم يرون أن لغة العرب لم تعد كافية في فهم القرآن الكريم، وفي هذا يقول الدكتور محمد شحرور: " لا يمكن فهم التنزيل الحكيم، من خلال فهم الشعر الجاهلي ومفرداته، فللجاهليين أرضيتهم العلمية، التي جاءت مفردات شعرهم عاكسة لها ومعبرة عنها ومقيدة بها، ونحن لا نجد كلمات أو مفردات عند العرب وقتها، تدل على الجاذبية الأرضية أو على كرويتها، لأنهم لم يعرفوها أصلاً. ولو حصرنا فهم التنزيل الحكيم بها، لما حق لنا أن نقول إن المكتشفات الحديثة العلمية أكدت مصداقية القرآن.

ومن هنا قلنا إن المجتمعات هي التي تشارك في صنع المعاني حسب تطور معارفها، لكن هذه التطورات نفسها محسوبة في التنزيل، بحيث مهما امتدت واتسعت، فسيجد الإنسان أنها منسجمة مع النص القرآني، مصدقة له، ودائرة في فلكه.

إضافة إلى ما ورد في الفقرة السابقة، فقد جاء التنزيل يحمل في ذاته تطويراً لغوياً لم يعرفه الجاهليون في لسانهم قبله. ففيه مفردات أتى بها من لغات أخرى غير العربية، وفيه أسلوب متميز بالنظم يخرجه كلية من دائرة الشعر أو الخطابة التي عرفها العرب قبله، وفيه مصطلحات مستحدثة انفرد بها، لم تكن موجودة قبله، وهذا وأشباهه كثير كثير، يؤكد استحالة اعتبار مفردات الجاهلية كافية بذاتها لفهم التنزيل الحكيم"[1].

وهكذا نرى أن الدكتور محمد شحرور يعلل عدم صلاحية لغة العرب وحدها لفهم القرآن الكريم بعدد من العلل، ومردها إلى أمور، وهي:

الأمر الأول: أن لغة العرب في الجاهلية لا تعبر عن الاكتشافات الحديثة، ولو قصرنا فهم القرآن عليها "

(١) الدولة والمجتمع، ص ٤٠-٤١.

لما حق لنا أن نقول إن المكتشفات الحديثة العلمية أكدت مصداقية القرآن".

وهذا لا يؤثر على اعتبار لغة العرب هي طريق فهم القرآن الكريم إذ المكتشفات الحديثة التي يُدَّعى دلالة القرآن عليها أحد نوعين:

النوع الأول: ما يدل عليها القرآن الكريم بطريق تقبله اللغة العربية ولا يخالف أساليبها فهذا النوع لا ينافي اعتبار لغة العرب طريق فهم القرآن الكريم.

النوع الثاني: ما استفاده أصحابه من القرآن الكريم بطرق لا تساعد عليها لغة القرآن الكريم نفسه، وهذا النوع نسبته إلى القرآن الكريم باطلة.

وأصل الإشكال إنما نشأ عند بعض الباحثين حين اعتبر القرآن الكريم كتاب علوم عصرية يتطلب فيه المكتشفات والمخترعات ويعتبر وجودها فيه دليل كماله، وعدم وجودها فيه دليل نقص يسعى إلى دفعه! وليس الأمر كذلك والقرآن الكريم كتاب هداية وتقرير عقيدة وعبادة ودين لا كتاب علوم.

الأمر الثاني: يرى الدكتور محمد شحرور أن لغة العرب عند نزول القرآن الكريم لم تعد كافية لفهم القرآن الكريم لأنها تعرضت لما أسماه تطويراً لغوياً، وهو حسب كلامه يقع في أمور ذكر منها:

- مفردات أتى بها القرآن الكريم من لغات أخرى غير العربية.
- أسلوب متميز بالنظم يخرجه كلية من دائرة الشعر أو الخطابة التي عرفها العرب قبله.
- مصطلحات مستحدثة انفرد بها، لم تكن موجودة قبله.

وهذه الأمور الثلاثة المذكورة بحاجة إلى وقفات فيما يلي:

الأمر الأول: القول بأن في القرآن الكريم ما هو بغير لغة العرب قول ناقشه العلماء رحمهم الله تعالى في كتبهم، عند بحثهم هل في القرآن معرب أو لا؟ وحاصل الأمر أن قوله تعالى: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [الشعراء: ١٩٥] دليل أنه لا يوجد في القرآن الكريم ما هو غير عربي، قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: " وإنما ذكر تعالى ذكره أنه نزل هذا القرآن بلسان عربي مبين في هذا الموضع، إعلاما منه مشركي قريش أنه أنزله كذلك، لئلا يقولوا إنه نزل بغير لساننا، فنحن إنما نعرض عنه ولا نسمعه، لأنا لا

نفهمه، وإنما هذا تقريع لهم"[1].

وما كان من الألفاظ في لغة من اللغات فهي من الألفاظ التي اتفقت فيها أجناس الأمم، وليس القول بأن العرب أخذوا هذا اللفظ من غيرهم بأولى من العكس[2].

الأمر الثاني: وجود الأسلوب المتميز عن الشعر والخطابة هو نوع من إعجاز القرآن الكريم، ولا علاقة لاختلاف الأسلوب القرآني عن الشعر والخطابة بعدم إمكان فهم هذا الأسلوب بلغة العرب زمن نزول القرآن الكريم، ولو كان ذلك لكان هذا من متمسكات الجاهليين في الطعن بالقرآن.

الأمر الثالث: المصطلحات القرآنية مبنية على اللغة العربية، فأصلها مفهوم في اللغة، وإن وقع التمييز لها بالمقدار أو الصفة، ومرد مثل هذا إلى مباحث المجمل والمبين عند الأصوليين[3]، فما كان في لغة العرب معروفا على طريق الإجمال ثم جاء في القرآن مبين الصفة أو القدر فلا يعني هذا إخراجه عن عربيته.

ومن الفهم الخاطئ لكتاب الله تعالى: الجهل بأهمية لغته:

تقول الكاتبة: آمنة وداد[4] في كتابها القرآن والمرأة:" تم استخدام لغة تلك البيئة ليس لجعل اللغة العربية لغة مقدسة، وإنما لجعل نزول القرآن مفهوماً. فمن غير المعقول أن رب العالمين لا ينطق بأكثر من لسان[5]. وفي الوقت نفسه ، نظراً لأن كل لفظ في اللغة العربية – سواء أشار إلى أشياء متحركة أو جامدة، في نطاق الطبيعة أو ما وراءها – يتم التعبير عنه بألفاظ مجنسة، فإن بعض الأفكار تتضمن علامات تذكير أو تأنيث والبعض الآخر يتجاهلها. لذلك، كيف يمكن التعبير بلغة مجنسة عن الأفكار التي تتجاوز التجنيس؟ إن قيود اللغة تعمل على تعقيد عملية إرشاد القارئ إلى ميادين واقع غير

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦٤٣/١٧).

(٢) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٨/١)، لغة القرآن لغة العرب المختارة، ص ١٩، علوم القرآن في مقدمات التفاسير (٢/ ٣٦٤).

(٣) انظر: قواطع الأدلة (٢/ ٥٠)، إرشاد الفحول (٧٢٠/٢)، أضواء البيان (١/ ٥-٤٦).

(٤) لم أقف لها على ترجمة.

(٥) في هذا التعبير سوء أدب مع الله تعالى، فهو جل جلاله يعلم اختلاف اللغات واختلاف الألسن، وليس نزول القرآن بلغة دون أخرى دليلاً على جهل باللغة الأخرى تعالى الله عن ذلك.

مجنس"[1].

وهذا الكلام بحاجة إلى وقفات:

الأولى: القول إن استخدام اللغة العربية إنما هو لجعل نزول القرآن مفهوماً هو قول من يجهل حال الأمم زمن نزول القرآن، وأن العرب حينها كانوا مضرب الفصاحة والبيان، ولذا نزل القرآن بهذه اللغة دون غيرها ليكون التحدي به أكمل وأعظم.

الثانية: بعد أن أشارت الكاتبة إلى أن القرآن الكريم نزل بلغة العرب عادت لتهون من شأن هذه اللغة بدعوى أنها لغة مجنسة أي تميز في ألفاظها بين الذكر والأنثى.

ومآل هذا التهوين من العربية هو التهوين من لغة القرآن الكريم نفسه، وما فيه من ألفاظ مذكرة أو مؤنثة.

والحق أن ما اعتبرته الكاتبة عيباً في لغة القرآن الكريم هو من محاسن هذه اللغة في خطابها، وهو علامة بلاغة عند العلماء، ذلك أن التمييز في المعاني والمقدرة على التفريق بين المخاطبين ميزة حسنة لا مأخذ ونقد تنتقد به اللغة[2].

المستوى التطبيقي للفهم الخاطئ لكتاب الله تعالى:

وهو كثير عند أفراد مدارس القراءات المعاصرة للنص؛ ولا عجب فالتنظير الخاطئ لطرق فهم كتاب الله تعالى يوصل إلى التطبيق الخاطئ؛ ومن أمثلة ذلك [3]: تفسير محمد شحرور لقوله تعالى: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ (القدر ٣)؛ حيث يقول الدكتور محمد شحرور :" لك أن تذهب بكلمة شهر إلى أنها من الشهرة والإشهار القانوني الملزم للبيع والشراء. ولا يلزمك أن تفهم ''الألف'' على أنها عدد، بل جاءت من فعل ''ألف'' وهو ضم الأشياء بعضها إلى بعض بشكل منسجم، ومنه جاءت الألفة والتأليف. أي

(١) القرآن والمرأة إعادة قراءة النص القرآني من منظور نسائي، ص ٣٨-٣٩.

(٢) انظر: مقاييس البلاغة بين الأدباء والعلماء، ص ٣٤٤.

(٣) الأمثلة كثيرة في كتب محمد شحرور ؛ ومحمد أركون؛ ويمكن الوقوف على بعضها عند محمد شحرور في: الكتاب والقرآن؛ ص ٦٠٤ عندما فسَّر الجيوب بالسوءتين! أو عند محمد أركون في القرآن بين التفسير المأثور وتحليل الخطاب؛ ص ١٧٠ يوم جَعَل القصص الواردة في سورة الكهف من قبيل الأساطير!

أن إشهار القرآن خير من كل الإشهارات الأخرى مؤلفة كلها بعضها مع بعض. "[1].

ولك أن تتأمل هذا الخلط العجيب في المعاني ؛ حيث يتحول الشهر إلى الإشهار! والألف إلى الألفة !!

ولا شك أن الظاهر من الآية الكريمة؛ وهو أن الشهر هو أحد الشهور القمرية؛ والمقصود به شهر رمضان؛ وأن الألف هي العدد المعروف؛ هذا هو المقصود ؛ وبه فسَّر الآية عامةُ المفسرين[2].

وهكذا يتبين لنا أن هذا الفهم الخاطئ لكتاب الله تعالى على الجانبين النظري والتطبيقي من أبرز موانع تدبر القرآن الكريم عند مدارس القراءات المعاصرة للنص.

---

(١) الكتاب والقرآن، ص ١٥٣.

(٢) انظر: جامع البيان (٢٤/ ٥٤٥)، زاد المسير (٩/١٩١)، الجامع لأحكام القرآن (٢٢/ ٣٩٣)، مفاتيح الغيب (٣٢/ ٣٠)، روح المعاني (٣٠/١٨٩).

المطلب الثالث: قلة العلم بعلوم القرآن ، واللغة وسائر العلوم الخادمة للتفسير.

وتتبين قلة العلم هذه من خلال عدة محاور:

أولاً: الخلط الكبير في منهج التعامل مع النصوص في مجال علوم القرآن:

ومنه ذلك: اعتبار الأخبار التاريخية مما يزكي قبول الروايات المتعلقة بالوحي:

يعد محمد عابد الجابري أن النصوص الواردة في السنة النبوية- ولو كانت في الصحيح- لا تكفي وحدها في موضوع الوحي، وإنما يقبلها لأن الأخبار التاريخية وردت مؤيدة لها، وموافقة لمضمونها، وفي ذلك يقول متحدثاً عن روايات نزول الوحي: " تلك روايات[١]، لابد أن يكتنفها ما يكتنف الروايات عادة من نقص أو زيادة وما أشبه. ومع ذلك فليس من الجائز تكذيبها جميعها خصوصاً ويزكي مضمونها ما سبق أن عرضناه في الفصل الأول عن انشغال الناس بانتظار نبي جديد، وتناقل أخبار ظاهرة الحنفاء، وتوقعات الأحبار والقساوسة، وغير ذلك "[٢].

وهذا الكلام باطل من وجوه:

الأول: وصف الروايات بأنها يكتنفها النقص والزيادة في العادة كلام باطل يقوله من لا يعرف القواعد التي وضعها العلماء للحكم بصحة الحديث أو حسنه[٣]، وتطبيقها ينفي الزيادة أو النقص في الروايات.

الثاني: تقوية الروايات الواردة في السنة النبوية بالأخبار التاريخية هو من تقوية القوي بالضعيف ذلك أن السنة النبوية يشترط لقبولها شروط متعددة في السند والمتن[٤] لا تشترط في الأخبار التاريخية.

---

(١) أشار الجابري في الحاشية إلى بعض مصادر هذه الروايات، فذكر سيرة ابن هشام، والبداية والنهاية لابن كثير، والطبقات الكبرى لابن سعد، وأغفل كثيراً من كتب السنة بل والصحيحين، إذ فيها روايات كثيرة في الوحي، وأول كتاب في البخاري هو كتاب بدء الوحي، فهل الجابري لم يقف على هذه المصادر التي تعتبر هي المصادر الأصلية في موضوع الوحي، وهذا ما أستبعده على رجل في مثل اطلاع الجابري، وإذاً فلم يبق إلا أنه ساق تلك المصادر من كتب السيرة وأغفل المصادر الأصلية ليتسنى له الكلام في نقد هذه الروايات دون معارض.

(٢) مدخل إلى فهم القرآن، ص ١٠٢.

(٣) وقد بينها علماء مصطلح الحديث، انظر: تدريب الراوي، (٦١/١)، فتح المغيث (٢٣/١).

(٤) السابق.

الثالث: تقوية الروايات بتوقعات الأحبار والقساوسة لم يقل به أحد، فإن هذه الأقوال إن كانت مما نقله هؤلاء عن شرعهم فمردها إلى الإسرائيليات[1]، وحاصل القول فيها أنها إن وافقت شرعنا فعملنا إنما هو بالشرع لا بهذه الروايات، وإن كانت من أقوال الأحبار والقساوسة التي قالوها دون أخذٍ لها من شريعتهم فهذه لم يقل أحد إنها تقوي الروايات الواردة في السنة النبوية، وإنما اعتد بقول الأحبار والرهبان أتباعهم ممن أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١]

القرآن عند هشام جعيط هو الوثيقة الصحيحة تاريخياً لا بقية النصوص:

أما هشام جعيط فيذهب إلى ما هو أبعد من مجرد تقوية الروايات الواردة في السنة النبوية بغيرها، إذ يرى أنها غير معتمدة أساساً لإثبات الوحي، وفي هذا يقول: " نحن كعلماء[2] نتبع ما يقوله كل دين عن نفسه: القرآن، وهو الكتاب المقدس لدى المسلمين، يقول: إنه وحي من الله وكلام الله وأن محمداً رسول الله أنزل عليه القرآن. القرآن يقول كذا وكذا عن تجربة الرؤية والوحي، وهي وثيقة رائعة لصحتها التاريخية ومعاصرتها للبعثة. ونحن لا نعتمد على ما أكمل به الإسلام فيما بعد من سيرة وتاريخ وطبقات وحديث، لأن القاعدة أن كل ما دُوِّن بعد مائة سنة من الحدث فاقد لثقة المؤرخ" [3].

وتأمل كيف ذكر الدكتور هشام جعيط السيرة والتاريخ والطبقات في سياق واحد مع الحديث ليسهل التوصل إلى نقد الحديث.

---

(١) الاسرائيليات هي: كل ما تطرق إلى التفسير والحديث من أساطير قديمة منسوبة في أصل روايتها إلى مصدر يهودي أو نصراني، انظر: الاسرائيليات في التفسير والحديث، ص ١٣.

(٢) هذه دعوى وهي بحاجة إلى إقامة الدليل، وما سنعرضه من كلام الدكتور هشام جعيط في هذه الرسالة في المباحث القرآنية لا يتفق والمنهج العلمي الذي يسلكه العلماء.

(٣) الوحي والقرآن، ص ٩٤.

ثانياً: قلة العلم بما يتعلق بجمع القرآن:

يقول محمد أركون متكلماً عن جمع القرآن: " يطيب للتراث المنقول أن يذكر أنه في حالات معينة فإن بعض السور كان قد سجل كتابة فوراً على جلود الحيوانات وأوراق النخيل أو العظام المسطحة، الخ. . واستمر هذا العمل عشرين عاماً "[١].

و قول الدكتور محمد أركون: " يطيب للتراث المنقول أن يذكر أنه في حالات معينة فإن بعض السور كان قد سجل كتابة فوراً على جلود الحيوانات وأوراق النخيل أو العظام المسطحة".

وهذا الأمر الذي نقله الدكتور محمد أركون مشككاً فيه هو الذي تدل عليه الأدلة، ومنها:

قول زيد بن ثابت رضي الله عنه: " فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع[٢] واللخاف[٣] والعسب[٤] وصدور الرجال"[٥]، ففي هذا الأثر أن القرآن الكريم كان مكتوباً قبل جمع أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

و يحاول محمد أركون أن يلخص النتائج المترتبة في زعمه على جمع عثمان رضي الله عنه للمصحف حيث يقول: " لقد نجم عن جمع (عثمان) عدداً[٦] من القراءات المؤسفة:

القضاء على المجموعات الفردية السابقة وعلى المواد التي كانت بعض الآيات قد سجلت عليها، التعسف في حصر القراءات في خمس، حذف مجموعة (ابن مسعود) المهمة جداً، وهو صحابي جليل، وقد أمكن الحفاظ على مجموعته بالرغم من ذلك في الكوفة حتى القرن الخامس. أضف إلى ذلك أن النقص التقني في الخط العربي يجعل من اللازم اللجوء إلى القراء المختصين، أي إلى شهادة شفهية "[٧].

وعند تأمل هذه النتائج المزعومة التي رتبها الدكتور محمد أركون على جمع عثمان رضي الله عنه للقرآن

---

(١) تاريخية الفكر العربي الإسلامي، ص ٢٨٨.

(٢) الرقاع جمع رقعة، وهي ما يكتب به، انظر: لسان العرب (٨/ ١٣١)، القاموس المحيط (٣/ ٣٠).

(٣) قال ابن فارس رحمه الله تعالى: "اللام والخاء والفاء كلمتانِ، إحداهما اللِّخاف، وهي حجارة بيض رقاق، واحدتها لَخْفَة" مقاييس اللغة (٥/ ٢٤١)، وانظر: تهذيب اللغة (٧/ ١٦٨).

(٤) العسب: جمع عسيب، والمراد جريد النخل، انظر: تاج العروس (٣/ ٣٦٩).

(٥) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب سورة براءة التوبة، (٤/١٧٢٠ برقم ٤٤٠٢).

(٦) هكذا!، والصواب: عددٌ بالضم لأنها فاعل.

(٧) الفكر العربي، ص ٣٠- ٣١.

نجد فيها عدداً من الأخطاء العلمية، وقد ذكر أربع نتائج، وسأذكرها مع التعليق عليها، وهي:

أولاً: قول أركون في النتيجة الأولى:" القضاء على المجموعات الفردية السابقة وعلى المواد التي كانت بعض الآيات قد سجلت عليها".

والحق أن هذه النتيجة ليست مؤسفة كما عبر أركون بل اتفق الصحابة الحاضرون زمن عثمان (رضي الله) عنه عليها، كما دل عليه أثر مصعب بن سعد[1] قال : "أدركت الناس متوافرين حين حرق عثمان المصاحف ، فأعجبهم ذلك ، وقال : لم ينكر ذلك منه أحد"[2].

ثانياً: قول محمد أركون:" التعسف في حصر القراءات في خمس" هذه النتيجة ظاهرة الغلط إذ إن كان مراده بالقراءات القراءات المعروفة فليست خمساً ولم يحدد عددها عثمان رضي الله عنه ولا أحد من الخلق لأنها وحي من الله تعالى، وإن كان المراد بالقراءات هنا نسخ المصاحف فلا حصر أصلاً لأن المراد اتخاذ هذه المصاحف[3] أصولاً ينسخ منها الناس لا الاكتفاء بها.

ثالثاً: قول محمد أركون:" حذف مجموعة (ابن مسعود) المهمة جداً، وهو صحابي جليل، وقد أمكن الحفاظ على مجموعته بالرغم من ذلك في الكوفة حتى القرن الخامس"

ويناقش هذا الكلام بأن مصاحف الصحابة ومنهم ابن مسعود رضي الله عنه الأصل أنها لم تكن تخالف المصحف الذي جمعه عثمان رضي الله عنه، ولو حصل ذلك لنقل لنا إنكار الصحابة بعض ما في

---

(١) مصعب بن سعد بن أبي وقاص القرشي الزهري ، أبو زرارة المدني، من التابعين، توفي سنة ١٠٣هـ، انظر: الثقات (٤١١/٥)، شذرات الذهب (١/ ١١٩).

(٢) سبق تخريجه. وما روي من كراهة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه لجمع عثمان رضي الله عنهما وجهها العلماء أن كراهته رضي الله عنه للجمع لم تكن بسبب حصول تقصير في الجمع، وإنما كانت لعدم تعيينه مع أعضاء لجنة النسخ للمصاحف، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: " روى عن عبدالله بن مسعود شيء من التغضب بسبب أنه لم يكن ممن كتب المصاحف وأمر أصحابه بغل مصاحفهم لما أمر عثمان بحرق ما عدا المصحف الإمام ثم رجع ابن مسعود إلى الوفاق"، انظر: فضائل القرآن، ص ٦٧-٦٨.

(٣) في عددها خلاف بين العلماء، قيل سبعة، وقيل أربعة وقيل خمسة، انظر: كتاب المصاحف (١/ ٢٣٨)، الإتقان (٣٩٣/٢) علوم القرآن من خلال مقدمات التفاسير (٢/ ٩١).

المصاحف العثمانية[1].

رابعاً: قول محمد أركون:" أضف إلى ذلك أن النقص التقني[2] في الخط العربي يجعل من اللازم اللجوء إلى القراء المختصين، أي إلى شهادة شفهية".

هذا الذي ذكره محمد أركون مبني على الظن أن كتابة المصاحف تعني الاستغناء عن نقل القرآن الكريم مشافهة ولم يقل به أحد من أهل العلم، لذا فإن تلقي القرآن بالمشافهة والسماع من الشيوخ ظل هو الأصل حتى مع كتابة المصاحف العثمانية، وعليه فلا إشكال في الرجوع إلى القراء المختصين.

ثالثاً: القول بالزيادة والنقص في القرآن:

تحدث الدكتور بسام الجمل عما زعمه من وقوع الزيادة والنقص في القرآن ومما قال: "وما استقر في الوجدان الإسلامي أن ما جمع من القرآن هو الوحي برمته لم يضع منه شيء، ولم يطرأ عليه أي تغيير بالزيادة أو النقصان. وهذا التصور تناقضه أخبار عديدة تناقلتها المصادر السنية نفسها. فما قيل في سورة الأحزاب معروف ومشهور بين الدارسين. وإذا ما صحت هذه الأخبار، فإن ذلك يحوج إلى إعادة النظر في حقيقة الوحي وتاريخ المصحف والأسس التي قام عليها مفهوم النسخ في القرآن"[3].

وهكذا نلحظ أن الدكتور بسام الجمل قام بتكرار التشكيك في حصول نقص أو زيادة في القرآن الكريم، دون تقديم حجة صحيحة، وأما الاستدلال بما قيل في سورة الأحزاب فهو يشير إلى أثر عائشة رضي الله عنها قالت: كانت سورة الأحزاب تقرأ في زمان النبي صلى الله عليه وسلم مائتي آية، فلما كتب عثمان

---

(١) أما المروي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه أنكر كون سورتي المعوذتين من القرآن فقد أنكره بعض العلماء كالنووي، و بينوا: إن ذلك باطل مكذوب عليه ، ليس بصحيح، انظر: المجموع (٣/ ٣٦٣)، مناهل العرفان (١/ ٢٢٤).

(٢) الحق أن وصف الرسم العثماني بالنقص التقني جهل بحقيقة هذا الرسم، وقد امتدح العلماء المحققون هذا الرسم، وبينوا إتقان كتبة المصحف من الصحابة لكتابته، وكيف أن هذه الكتابة تحملت أوجه القراءة المختلفة، انظر: رسم المصحف دراسة لغوية تاريخية، ص ٧٤١، رسم المصحف وضبطه، ص ٤١.

(٣) أسباب النزول، ص ٣٠٨.

المصاحف لم يقدر منها إلا على ما هو الآن[1].

وأُثر عن زر بن حبيش قال: قال لي أبي بن كعب: يا زر، كأين تعد ؟ أو قال : كأين تقرأ سورة الأحزاب ؟ قلت: اثنتين وسبعين آية ، أو ثلاثا وسبعين آية . فقال: « إن كانت لتعدل سورة البقرة ، وإن كنا لنقرأ فيها آية الرجم »، قلت: وما آية الرجم ؟ قال : (إذا زنا الشيخ والشيخة فارجموهما البتة نكالا من الله . والله عزيز حكيم)[2].

وهذان الأثران ضعيفان لا تقوم بهما حجة، و على فرض صحتهما يجاب بأن المراد أنها كانت مئتي آية قبل أن يقع فيها نسخ، ثم نسخت نسخ تلاوة حتى بقيت على ما هي عليه اليوم، وقد أورد السيوطي رحمه الله تعالى هذه الآثار في منسوخ التلاوة والحكم[3].

رابعاً: الجهل العظيم بطرق نقل القراءات القرآنية:

يقول الدكتور محمد أركون: " كان الطبري لا يزال قريباً من عهد الاختلاف في ما يخص نقل النصوص القرآنية (أو الصياغات النصية). ولذلك نجد لديه إشارات متكررة إلى قراءات مختلفة، ولكن مع الحرص المستمر على شيئين اثنين: الأول هو أنه يرفض القراءات المختلفة أكثر من اللازم والتي تصعب مصالحتها مع المعايير اللاهوتية (الأرثوذكسية)[4]. أما القراءات الأخرى التي لا تختلف كثيراً فإنه يهضمها ويدمجها داخل البنية العامة للخطاب القرآني. بتعبير آخر، إن عمل الطبري يفرض نفسه كجهد مبذول من أجل تحقيق الانسجام والتوفيق والعقلنة والتثبيت اللغوي والأدبي لنص نقل شفهياً وكتابياً في آن معاً طيلة ثلاثة قرون. أما بعد الطبري فقد أصبحت الروايات المختلفة مندمجة جداً إلى درجة أنها

---

(١) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن، (١٤٦/٢ برقم ٧٠٠)، وفي إسناده ضعف، ومتنه باطل إذ يوهم وجود تلك الآيات وإنما منع من كتابتها عدم مقدرة عثمان رضي الله عنه على جمعها، وهذا باطل مناف لحفظ الله تعالى للقرآن، انظر: الإتقان (٤/ ١٤٥٦).

(٢) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن، (١٤٦/٢ برقم ٧٠١)، وفي إسناده ضعف، وانظر: الإتقان (٤/ ١٤٥٧).

(٣) انظر: الإتقان (١٤٥٦/٤- ١٤٥٧).

(٤) وصف الأمور الشرعية باللاهوتية والأرثوذكسية فيه سوء أدب في العبارة.

نقلت بشكل مغفل عن طريق استخدام صيغة الفعل المبني للمجهول، فيقولون: قرئ" [1].

وفي كلام الدكتور محمد أركون عدد من الملاحظات:

الأولى: يعتبر محمد أركون أن هناك عصراً حدث فيه الاختلاف في نقل النصوص القرآنية، ولذا نرى أنه يقول: " كان الطبري لا يزال قريباً من عهد الاختلاف في ما يخص نقل النصوص القرآنية"، هكذا كأن هذه القضية من المسلمات، مع أن الناظر في تاريخ جمع القرآن الكريم لا يجد أي خلاف قد حدث يتعلق بالنصوص القرآنية أصلاً، ووجود تردد من بعض الصحابة أول الأمر في قضية جمع القرآن الكريم لا يعني أنهم يخالفون في النصوص القرآنية!، لذا فكلام الدكتور محمد أركون هنا فيه خلل ظاهر.

الثانية: يجعل الدكتور محمد أركون إشارة الطبري للقراءات نتيجة لقربه من عصر الاختلاف في نقل النصوص، وهذا أمر يبطله أن العلماء والمفسرين ممن جاء بعد الطبري بقرون متعددة ينقلون في كتبهم اختلاف القراءات، وعناية الطبري رحمه الله تعالى يذكر القراءات المختلفة في الآية راجعة إلى ما يترتب على هذه القراءات من اختلاف في المعنى[2].

الثالثة: القول إن الطبري رحمه الله تعالى" يرفض القراءات المختلفة أكثر من اللازم والتي تصعب مصالحتها مع المعايير اللاهوتية (الأرثوذكسية)" هو جهل بمنهج الطبري رحمه الله تعالى في التعامل مع القراءات، فلا علاقة لما يرده الطبري من القراءات بالاختلاف مع المعايير اللاهوتية كما يزعم أركون، ولكن للطبري رحمه الله تعالى موقف من القراءات قائم على منهج علمي يسلكه[3].

والحاصل أن من موانع تدبر القرآن الكريم عند مدارس القراءات المعاصرة للنص ما سبق بيانه من الجهل

---

(١) القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب، ص ١٥٥.

(٢) وهذا أمر أبرزه من اعتنوا ببيان منهج الطبري في تفسيره، انظر: التفسير والمفسرون (١/ ٢١٤).

(٣) وردت عن الطبري عدة عبارات في تفسيره توهم الرد لبعض القراءات المتواترة ووصفها بالشذوذ، وقد دفعت هذه العبارات الباحثين لتتبع منهج الطبري في ذلك، ولعل أبرز ما يمكن قوله هو أن الطبري رحمه الله تعالى لم يثبت عنده تواتر ما رد من القراءات، ولذا فهو لم ينكر قراءة متواترة ثبت عنده تواترها، وإن كان رأيه هذا مرجوحاً، وقد بين العلماء أن ما رده ابن جرير متواتر أيضاً، ولا تعارض بين القراءات أصلاً، انظر: هل أنكر ابن جرير قراءة متواترة أوردها، مقال للدكتور مساعد الطيار، موقع ملتقى أهل التفسير/
http://www.tafsir.net/vb/showthread.php?s=&threadid=٩٩١

بعلوم القرآن الكريم؛ وما هذه النقاط السابقة إلا غيض من فيض من قلة علمهم بعلوم القرآن وأصول التفسير.

المطلب الرابع: الزهد والتزهيد في كتب التفاسير .

من طرق فهم كتاب الله تعالى؛ وتدبره: القراءة في كتب التفسير؛ ومعرفة أقوال المفسرين، ومن يزهد في كتب التفسير والمفسرين؛ فهو في مؤدى الأمر يزهد في طريقة فهم القرآن الكريم في زمننا؛ وبالتالي فهو من أبعد الناس عن تحقيق التدبر.

وهذه نقول تبين حال أفراد مدارس القراءة المعاصرة للنص مع المفسرين وكتب التفسير؛ ومن ذلك قول محمد أركون عن الإمام الطبري رحمه الله تعالى: " كان الطبري، مثلا، يستطيع أن يسبق بكل سذاجة كل تفسير من تفاسيره بالعبارة التالية: يقول الله. لكأنه يستطيع أن يعرف بالضبط مقصد الله من كلامه ويشرحه حرفياً"[(١)].

وهكذا يتحول الأدب العظيم الذي يتحلى به الطبري – رحمه الله تعالى – مع القرآن الكريم إلى محل انتقاد عند محمد أركون يستحق به أن يوصف صنيعه هذا بالسذاجة، وما فهمه محمد أركون من أن قول الإمام الطبري رحمه الله تعالى: يقول الله تعالى، يتضمن ادعاءه معرفة المراد الكامل من القرآن الكريم يدل على جهله بأسلوب هذا الإمام في التفسير، حيث يستخدم هذه العبارة كثيراً في تفسيره بعد عبارة: (القول في تأويل قوله تعالى)[(٢)]، وهذا يفيد بوضوح أنه يرى ما يقوله تأويلا وتفسيراً للآية لا أنه المراد الكامل من الآية.

---

(١) الفكر الاسلامي نقد واجتهاد، ص ٩٠.

(٢) انظر على سبيل المثال: جامع البيان (٢/٥٤، ٧٥، ١٣٠، ١٥١، ١٥٢)، والأمر أكثر من أن يحصى.

وأشد من ذلك: الطعن في مفسري التابعين:

يقول الدكتور بسام الجمل متحدثاً عن جهد التابعين في نقل أسباب النزول؛ والبحث عنها:" ولم يكن بحثهم، ههنا، بمنأى عن ضغوط واقعهم التاريخي واكراهاته الخفية والمعلنة من ناحية وعن آفاقهم المعرفية ونفسياتهم وانتماءاتهم الايديولوجية ونزعاتهم المذهبية من ناحية أخرى"[1].

وهكذا لا يترك الدكتور بسام الجمل الكلام عن عصر التابعين دون أن يطعن في نياتهم في نقل أسباب النزول، وأنهم لم يكونوا "بمنأى عن ضغوط واقعهم التاريخي، واكراهاته الخفية والمعلنة من ناحية، وعن آفاقهم المعرفية، ونفسياتهم، وانتماءاتهم الأيديولوجية، ونزعاتهم المذهبية من ناحية أخرى".

المبحث الثالث: موانع تدبر القرآن الخاصة عند مدارس القراءات المعاصرة للنص

هي الموانع التي تمنع من تدبر القرآن؛ ويختص بها أفراد مدارس القراءات المعاصرة للنص عن سواهم من المنحرفين فكرياً.

ويمكن إجمالها في أربعة مطالب؛ وهي كالتالي:

المطلب الأول: القول بخلق القرآن أو بأنه منتج بشري.

لا شك أن من أعظم الأمور المعينة على تدبر القرآن الكريم: اعتقاده كلاماً لله تعالى؛ وأن من الأمور التي تمنع من تدبره: الاعتقاد بأنه مخلوق أو من كلام البشر؛ إذ لا معنى حينها لبذل الجهد في إعمال النظر في كلام مخلوق؛ أو من كلام البشر؛ والاقتصار حينها على دلالته الظاهرة.

ويكاد أفراد مدارس القراءات المعاصرة للنص يتفقون على تقرير قول المعتزلة في مسألة خلق القرآن، والثناء عليه، بل وتجاوزوه إلى لوازم لم يقل بها حتى المعتزلة أنفسهم؛ ومن ذلك:

أهمية قول المعتزلة، ولوازم الأخذ به عند محمد أركون:

يقول الدكتور محمد أركون: " حاول مذهب المعتزلة أن يفرض رسمياً تلك النظرية الشهيرة القائلة بأن القرآن هو كلام الله المخلوق. وكان أول مذهب يبتدئ القول بذلك وينظر له[1]. ثم اندلع صراع بين

(١) أسباب النزول، ص ١٤٧-١٤٨

المسلمين حول هذه المسألة، ووصل إلى ذروته عندما حصلت المحنة ضد المذهب الحنبلي وزعيمه أحمد بن حنبل. ومن المعلوم أن هذا الأخير عبر عن مبدأ قوي من مبادئ اللاهوت الإسلامي. يقول هذا المبدأ: " لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق"[٢] لكن ينبغي الاعتراف بأن منهجية المعتزلة كانت تحتوي على إمكانية نظرية كامنة وواعدة"[٣].

وهكذا نرى أن الدكتور محمد أركون يخلص بعد أن تكلم عن المعتزلة ونشرهم للقول بخلق القرآن إلى مدحهم بأن نظريتهم كانت تحتوي على نظرية واعدة، يقول: " لكن ينبغي الاعتراف بأن منهجية المعتزلة كانت تحتوي على إمكانية نظرية كامنة وواعدة"

والمتأمل في كتابات مدارس القراءات المعاصرة للنص يجدهم يتكلمون عن بشرية النص القرآني[٤]، فهم انتقلوا من قول المعتزلة بخلق القرآن إلى لوازم هذا القول التي لم يقلها المعتزلة أنفسهم، وهي أن القرآن الكريم منتج بشري[٥].

لذا ينتقل محمد أركون بعد أن قرر أن قول المعتزلة هو القول الصحيح إلى بيان لوازم الأخذ بهذا القول – حسب رأيه – فيقول: " ماذا تعني تلك الأطروحة؟ إنها تعني – بكل بساطة – أن القرآن بحاجة إلى وساطة بشرية. أن نقول بأن القرآن مخلوق فهذا يعني أنه متجسد في لغة بشرية، هي هنا اللغة العربية. هذه هي النظرية التي نسيها المسلمون على مدار التاريخ. وبالتالي فلا يمكنك أن تذهب إلى الله أو تصل إليه إلا عن طريق لغة بشرية. وكل ما عدا ذلك وهم أو عدم قدرة على التمييز.

ماذا يعني ذلك أيضاً؟ إنه يعني أنك ما إن تستخدم لغة بشرية للتوصل إلى الله أو لكي تسميه حتى تجد نفسك مضطراً لمواجهة كل صعوبات التأويل والتفسير الخاصة بانبناء المعنى داخل هذه اللغة البشرية"[١].

---

(١) ويكفي هذا في بطلان هذا القول، لأنه لو كان حقاً لسبق إليه النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته رضي الله عنهم.

(٢) هذا حديث صحيح، أخرجه بهذا اللفظ أحمد، مسند علي، (٣٣٣/٢ برقم ١٠٩٥)، وصححه شعيب الأرنؤوط.

(٣) القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب، ص ١١.

(٤) انظر: قضايا في نقد العقل الديني، ص ٢٧٨.

(٥) يقول محمد أركون: "أن نقول بأن القرآن مخلوق فهذا يعني أنه متجسد في لغة بشرية"، انظر: قضايا في نقد العقل الديني، ص ٢٧٨.

وفي موضع آخر لا يخفي الدكتور محمد أركون حزنه لضعف المعتزلة، وعدم ظهور القول بخلق القرآن، وفي ذلك يقول: " لقد بتر المسلمون أنفسهم وبتروا تراثهم وتاريخهم إذ منعوا منعاً باتا نظرية المعتزلة عن القرآن المخلوق. ونحن لا نزال ندفع حتى اليوم ثمن هذا البتر دماً ودموعاً"[٢].

وهكذا نرى أن موقف أهل السنة في رد أقوال المعتزلة، وخصوصاً قولهم بخلق القرآن قد تحول عند أركون إلى بتر للتراث والتاريخ.

وأما الدكتور حسن حنفي فيجعل القول بخلق القرآن نوعاً من التنزيه لله تعالى!؛ حيث يقول: " والحقيقة أن القول بالخلق أو الحدوث أكثر إطلاقاً لعواطف التنزيه، إذ كيف يكون الكلام بالصوت والحرف المسموع المرئي صفة تعبر عن التنزيه وهي لا تخلو من حس وتشبيه؟ كيف يكون القديم حسياً؟ إن القول بالخلق والحدوث هو في نفس الوقت تنزيه للذات وأكثر اقتراباً من الكلام كموضوع حسي علمي يمكن دراسته في علم الصوت أو في علوم اللغة"[٣].

وهذا القول باطل، إذ كلام الله تعالى – والقرآن منه– صفة من صفات الله تعالى التي نثبتها على الوجه الذي يليق بالله تعالى[٤]، وإذا كانت صفة لله تعالى فإن مقتضى تنزيه الله تعالى إثبات ما أثبت الله تعالى لنفسه.

وأما الدكتور نصر حامد أبو زيد فيقول: " إن القول بإلهية النصوص والإصرار على طبيعتها الإلهية تلك يستلزم أن البشر عاجزون بمناهجهم عن فهمها ما لم تتدخل العناية الإلهية[٥] بوهب بعض البشر طاقات خاصة تمكنهم من الفهم، وهذا بالضبط ما يقوله المتصوفة[٦]. وهكذا تتحول النصوص الدينية إلى نصوص مستغلقة عن فهم الإنسان العادي – مقصد الوحي وغايته – وتصبح شفرة إلهية لا تحلها إلا

---

(١) قضايا في نقد العقل الديني، ص ٢٧٨-٢٧٩.

(٢) قضايا في نقد العقل الديني، ص ٢٧٩.

(٣) من العقيدة إلى الثورة (٢/٤٥٣-٤٥٤).

(٤) انظر: معتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات، ص ١٢٩.

(٥) هذه العبارة: (تتدخل العناية الإلهية) فيها سوء تعبير، والأولى استخدام الكلمات الواردة في النصوص عند الكلام عن الله تعالى أو أسمائه وصفاته.

(٦) نسبة القول بعجز البشر عن فهم القرآن حتى يكون للمفسر طاقات خاصة إلى المتصوفة نسبة خاطئة، إذ لم يقل بهذا لا المتصوفة ولا غيرهم من أهل الإسلام.

قوة إلهية خاصة. وهكذا يبدو وكأن الله يكلم نفسه ويناجي ذاته، وتنتفي عن النصوص الدينية صفات الرسالة والبلاغ والهداية والنور ..إلخ. وإذا كنا هنا نتبنى القول ببشرية النصوص الدينية، فإن هذا التبني لا يقوم على أساس نفعي إيديولوجي يواجه الفكر الديني السائد والمسيطر، بل يقوم على أساس موضوعي يستند إلى حقائق التاريخ وإلى حقائق النصوص ذاتها، وفي مثل هذا الطرح يكون الاستناد إلى الموقف الاعتزالي التراثي وما يطرحه من حدوث النص وخلقه ليس استناداً تأسيسياً، بمعنى أن الموقف الاعتزالي رغم أهميته التاريخية يظل موقفاً تراثياً لا يؤسس – وحده – وعينا العلمي بطبيعة النصوص الدينية"[1].

ولاحظ قول الدكتور نصر حامد أبو زيد: " الموقف الاعتزالي رغم أهميته التاريخية يظل موقفاً تراثياً لا يؤسس – وحده – وعينا العلمي بطبيعة النصوص الدينية".

وهنا نتساءل: إذا كان الموقف السني غير معترف به عندكم، وكان الموقف الاعتزالي لا يؤسس وعيكم بطبيعة النصوص الدينية، فمن أين تأخذون وعيكم بهذه النصوص؟.

(١) نقد الخطاب الديني، ص ٢٠٦.

المطلب الثاني: تأثير النشأة الماركسية المادية.

شتان بين من منشؤوه مع القرآن والسنة؛ وبين من منشؤوه مع غيرهما؛ فإن الأول تعينه نشأته على أنواع من التدبر والتأمل لكلام الله تعالى؛ بخلاف الثاني الذي تسهم نشأته في إبعاده عن كلام الله تعالى.

وقد ظهرت الحركة الاشتراكية[1] في بداية القرن المنصرم، وانتشرت في كثير من البلاد، وقد اغتر بها كثير من الناس لأنها كانت تنادي بمبادئ رنانة كالعدل والمساواة والحرية.

ولم تسلم كثير من البلاد العربية والإسلامية من هذا التأثر، والاغترار بالاشتراكيين، فقامت كثير من الأحزاب على أساس شيوعي، ولاقت ممانعة من جمهور الناس لما تحمله الاشتراكية من معارضة صريحة للإسلام، وأمام هذا الحال انتقلت الحركات الاشتراكية من المواجهة الصريحة مع الدين إلى محاولة الاستفادة من تلاميذ المستشرقين في نشر الأفكار الاشتراكية، وقد ظهر على أثرها جيل ممن يدافعون عن الاشتراكية.

وتولى كبر هذه المهمة في الأمة عدد من أذناب المستشرقين؛ ومنهم بعضٌ ممن اشتهروا بالقراءات المعاصرة للنصوص؛ ومن هؤلاء حسن حنفي، والذي يعد أبرز من تبنى مصطلح اليسار الاسلامي، وهو مصطلح يجمع بين الاسلام والاشتراكية، يقول نصر حامد أبو زيد مبيناً كيف نشأ مصطلح اليسار الاسلامي: " لقد طرح مصطلح " اليسار الإسلامي" لأول مرة – فيما نعلم – في بداية الثمانينيات في مصر، طرحه حسن حنفي، أهم ممثليه لا في مصر وحدها بل في العالم الإسلامي عموما، وفي العالم العربي على وجه الخصوص"[2].

يقول حسن حنفي مدافعا عن الاتجاه اليساري (الاشتراكي): " وهل كان اليسار أبداً موضع شبهة وقد كانت الأديان كلها بلا استثناء دعوات يسارية[3] من أجل تغيير الوضع القائم إلى وضع أفضل أقرب إلى

---

(١) الاشتراكية مذهب اقتصادي و سياسي ظهر لمعارضة النظام الرأسمالي وإشراك المجتمع في ملكية عوامل الإنتاج، انظر: الموسوعة الميسرة في المذاهب والأديان المعاصر (١١٤٢/٢).

(٢) نقد الخطاب الديني، ص ١٤٦.

(٣) هذا التعبير في وصف الدين تعبير لا يجوز استخدامه، لما فيه من جمع بين الدين وغيره مما يناقضه، وخاصة مع تحرير مصطلح (يسارية) وأنه يعني اشتراكية، وقد كتب كثير من العلماء في حكم الاشتراكية كتباً بينوا فيها أنها

التقوى الباطنية والعدالة الاجتماعية، وأرعى لروح الأخوة والمساواة والتراحم؟ وكيف أكرر ما علمناه دوماً وما لا يحتاج إلى إثبات من اشتراكية الإسلام[١]؟ فرسالات السماء كلها دعوات تقدمية[٢] ولا يوجد نبي إلا وله هذه الدعوة للتغيير والإصلاح الاجتماعي في بني قومه[٣]. واليسار تجمع لكل القوى بما فيها اليسار الماركسي واليسار الديني، واليسار الليبرالي، واليسار الوطني، واليسار التلقائي، ويسار المثقفين، واليسار الديني يكاد يكون هو القاسم المشترك بين جميع قوى اليسار"[٤].

ومنهم: محمد عابد الجابري الذي تعود صلته بالحركات الاشتراكية إلى مراحل مبكرة من ظهورها في البلاد العربية، فهو يقول:" في بداية الستينيات ظهر للجغرافي الفرنسي إيف لاكوست[٥] كتاب عن ابن خلدون دافع فيه عن أطروحة تجعل من ابن خلدون رائداً للماركسية، أو على الأقل للمادية التاريخية[٦]. لقد كنت آنذاك على صلة بالفكر الماركسي، كنت بصدد قراءة المؤلفات الماركسية الأساسية وكنت كذلك على صلة بابن خلدون، حيث ترجع علاقاتي بهما معاً، بماركس[٧] وابن خلدون إلى أواخر الخمسينيات، أي السنوات الأولى من دراستي الجامعية"[٨].

تناقض الدين، انظر: موقف الإسلام من الاشتراكية، مناع القطان، ص ١٣، المذاهب والأفكار المعاصرة في التصور الإسلامي، ص ١٨٥، الاشتراكية الماركسية ومقاصدها السيئة، ص ١٤.

(١) هذا الأمر الذي لا يحتاج إلى إثبات عند حسن حنفي، وهو اشتراكية الإسلام هو ما سبق وأن نقلنا في الحاشية السابقة حكم العلماء فيه، وأن الاشتراكية مناقضة للإسلام.

(٢) في الأصل: تقديمة وهو خطأ مطبعي، وفي عبارة: (رسالات السماء كلها دعوات تقدمية) من الخطأ ما في عبارة اشتراكية الاسلام.

(٣) نعم كان الأنبياء يعتنون بالإصلاح الاجتماعي، ولكن دعوتهم جميعاً كانت قائمة على التوحيد، وإفراد الله تعالى بالعبادة، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ (سورة النحل: ٣٦).

(٤) الدين والثورة في مصر(٢٠٤/٧).

(٥) لم أجد له ترجمة.

(٦) مصطلح المادية التاريخية مصطلح ماركسي وضعه ماركس يفسر أحداث التاريخ على أساس العوامل المادية وحدها، انظر: الموسوعة العربية العالمية (٤٧/٢٢).

(٧) كارل ماركس، ولد سنة ١٨١٨م –فيلسوفٌ ألماني واجتماعي وثوري محترف. كان المؤسس الرئيسي لحركتين جماهيريَّتين قويتين هما: الاشتراكية الديمقراطية والشيوعية الثورية، من مؤلفاته: كتاب رأس المال، توفي سنة ١٨٨٣م، انظر: الموسوعة العربية العالمية (٦٣/٢٢).

(٨) التراث والحداثة، ص ٣٠٧.

المطلب الثالث: الخلل في منهج فهم النص:

سبقت الإشارة إلى عدم عناية مدارس القراءات المعاصرة للنصوص باللغة العربية؛ وتلك مصيبة في الفهم؛ وأشد منها استخدام آلات فهم من خارج الإطار اللغوي العربي؛ وتطبيقها على القرآن الكريم؛ ولا شك أن هذا له أثره في إضعاف التدبر ؛ بل إضعاف فهم القرآن نفسه؛ **ومن ذلك: فهم لغة القرآن على ضوء المناهج الحديثة.**

ويعتبر الدكتور محمد أركون من أبرز الدعاة إلى تطبيق المناهج اللغوية الحديثة في فهم القرآن الكريم، وفي ذلك يقول: " لقد شرعت في تطبيق إشكاليات ومناهج اللسانيات والسيميائيات[١] لتحليل الخطاب القرآني منذ أوائل السبعينات من القرن الماضي"[٢].

ويقول: " ظهرت مؤخراً دراسات عن النصوص التوراتية والإنجيلية، وقد برهنت على الحقيقة التالية: إن للقراءة الألسنية قيمة لا تضاهى من حيث التقشف والدقة والصرامة. فهي تجبرنا على أن نظل محصورين داخل الحدود الصارمة للإمكانيات التعبيرية للغة، مع استبعاد كل المفترضات الصريحة والضمنية، هذه المفترضات أو المسلمات التي تضيفها أو تخلعها كل قراءة على النص، ولكننا سوف نرى كيف أن نصاً متميزاً كسورة الفاتحة يمكن أن يجبرنا على فتح القراءة الألسنية بطريقة لا محدودة"[٣].

وليس نجاح هذه المناهج في تحليل النصوص التوراتية والإنجيلية كما يقول الدكتور محمد أركون بمسوغ لنقلها إلى القرآن الكريم، وما حاول الدكتور محمد أركون أن يمدح به هذه المناهج من أنها "تجبرنا على أن نظل محصورين داخل الحدود الصارمة للإمكانيات التعبيرية للغة، مع استبعاد كل المفترضات الصريحة والضمنية" هذا المدح هو في حقيقته عيب من عيوب هذه المناهج، فإن استبعاد كل المفترضات الصريحة والضمنية إن أريد به أن هذه المناهج لا تتناول ما دلت عليه النصوص من معان على طريق الاستنباط

---

(١) السيميائية، أو علم الدلالة، وهي: الشروط الواجب توافرها في الرمز كي يحمل المعنى، انظر: علم الدلالة، ص ١١، السيميائية وفلسفة اللغة، ص ٤٣.

(٢) القرآن الكريم من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب، ص ٥.

(٣) القرآن الكريم من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب، ص ١١٢.

والنظر في دلالات الألفاظ[1] فهذا عيب ظاهر كفيل بإلغاء الاستفادة منها في فهم النصوص العربية عامة، وإن أريد أنها تستبعد المفترضات التي لا يدل عليها النص أصلاً، وإنما هي فهم لا تعلق للنص به، فكذلك اللغة العربية، ولا ميزة لهذه المناهج حينها.

و إنما جاءت المناداة إلى تطبيق مناهج اللسانيات الحديثة، واللغويات المعاصرة لأن رواد المدارس المعاصرة يرون أن لغة العرب لم تعد كافية في فهم القرآن الكريم، وفي هذا يقول الدكتور محمد شحرور: " لا يمكن فهم التنزيل الحكيم، من خلال فهم الشعر الجاهلي ومفرداته، فللجاهليين أرضيتهم العلمية، التي جاءت مفردات شعرهم عاكسة لها ومعبرة عنها ومقيدة بها، ونحن لا نجد كلمات أو مفردات عند العرب وقتها، تدل على الجاذبية الأرضية أو على كرويتها، لأنهم لم يعرفوها أصلاً. ولو حصرنا فهم التنزيل الحكيم بها، لما حق لنا أن نقول إن المكتشفات الحديثة العلمية أكدت مصداقية القرآن.

ومن هنا قلنا إن المجتمعات هي التي تشارك في صنع المعاني حسب تطور معارفها، لكن هذه التطورات نفسها محسوبة في التنزيل، بحيث مهما امتدت واتسعت، فسيجد الإنسان أنها منسجمة مع النص القرآني، مصدقة له، ودائرة في فلكه"[2].

وهكذا نرى أن الدكتور محمد شحرور يعلل عدم صلاحية لغة العرب وحدها لفهم القرآن الكريم بعدد من العلل؛ ومؤدى هذا الأمر: **الاستعانة بالمناهج اللغوية المعاصرة في فهم النصوص**.

ولذا فإن تدبر القرآن الكريم يبدو بعيداً عن مدارس القراءات المعاصرة للنصوص؛ لأنها ستبحث عن معاني كلام الله تعالى ومقاصده في مناهج بعيدة عنه مقطوعة الصلة بماضي الأمة وحاضرها.

---

(١) وهذا هو الذي يظهر لي أن الدكتور محمد أركون أرداه فإن دراسته لسورة الفاتحة على وفق هذه المناهج لم تعد دراسة بعض التراكيب وأنها مبنية للفاعل أو المفعول، والضمائر، وذكر الأسماء والأفعال في السورة الكريمة، ونحو ذلك مما لم يتعرض معه لدلالة الآيات الكريمة في السورة، وهو يدل على مستوى القصور الموجود في هذه المناهج في التعامل مع النصوص القرآنية.

(٢) الدولة والمجتمع، ص ٤٠-٤١.

المطلب الرابع: القول بتاريخية النص القرآني.

حاولت مدارس القراءات المعاصرة للنصوص ربط القرآن الكريم بالظرف التاريخي كي تسقط عنه خصيصة من أهم خصائصه؛ وهي صلوحيته لكل زمان ومكان.

فتاريخية النص تعني " اخضاع النص لأثر الزمان والمكان والمخاطب مطلقاً"[١] ومرادهم" التنصل من سلطة النص ومعياريته؛ وقداسته وشموليته وإطلاقيته "[٢].

ومن مداخل التاريخية المزعومة عندهم: ما يراه محمد أركون أن القرآن بحاجة إلى إعادة ترتيب وإخراج طبعة محققه !!

يقول محمد أركون كذلك :(المعركة التي جرت من أجل تقديم طبعة نقدية محققة عن النص القرآني؛ لم يعد الباحثون يواصلونها اليوم بنفس الجرأة كما كان عليه الحال في زمن نولدكة الألماني[٣] وبلاشير الفرنسي[٤] لم يعودوا يتجرأون[٥] عليها أو على أمثالها خوفاً من رد فعل الأصولية الإسلامية المتشددة، وهذه الطبعة النقدية تتضمن بشكل خاص إنجاز تصنيف كرونولوجي (أي زمني) للسور والآيات من أجل العثور على الوحدات اللغوية الأولى للنص الشفهي ولكن المعركة من أجل تحقيق القرآن لم تفقد أهميتها العلمية على الإطلاق. وذلك لأنها هي التي تتحكم بمدى قدرتنا على التوصل إلى قراءة تاريخية أكثر مصداقية لهذا النص. أقصد قراءة أقل اعتماداً على الظنون والفرضيات والبحث عن الاحتمالات... يبدو لي أنه من الأفضل أن نستخلص الدروس والعبر من الحالة اللامرجوع عنها، والتي نتجت عن التدمير المنتظم لكل الوثائق الثمينة الخاصة بالقرآن، اللهم إلا إذا عثرنا على مخطوطات

---

(١) العلمانيون والقرآن الكريم، ص ٣٣٢.

(٢) السابق.

(٣) تيودور نولدكه: كبير المستشرقين الألمان. ولد عام ١٨٣٦م في هامبورغ، توفي عام ١٩٣٠م، انظر: موسوعة المستشرقين، ص ٥٩٥.

(٤) ريجيس بلاشير: من أشهر مستشرقي فرنسا في القرن العشرين ومن أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق. ولد في مونروج (من ضواحي باريس) عام ١٩٠٠م، توفي عام ١٩٧٣م، انظر:موسوعة المستشرقين، ص ١٢٧.

(٥) هكذا كتبت، والصحيح: يتجرؤون.

جديدة توضح لنا تاريخ النص وكيفية تشكله بشكل أفضل)[1].

وهذه المطالبة بطبعة محققة أو نقدية كما يعبر توحي أنه يتكلم عن مخطوط من المخطوطات النادرة لا عن كتاب منقول بالتواتر !!

والحقيقة أن القول بتاريخية القرآن الكريم؛ وربطه بواقع تاريخي معين؛ يلغي كل فائدة لتدبره أو تفسيره؛ لأن تدبره لا يعني حينها سوى المعلومة النظرية التي لا يتبعها عمل.

لذا كان القول بتاريخية النص القرآني عند مدارس القراءات المعاصرة للنص من أبرز موانع تدبر القرآن الكريم.

المبحث الرابع: علاج موانع تدبر القرآن عند مدارس القراءات المعاصرة للنص.

يحتاج أفراد مدارس القراءات المعاصرة للنصوص كي يحققوا التدبر الصحيح للقرآن الكريم إلى نوعين من العلاج؛ علمي؛ وإيماني؛ وفيما يلي بيان ذلك:

المطلب الأول: العلاج العلمي لموانع تدبر القرآن عند مدارس القراءات المعاصرة للنص.

بناء على النظر إلى الموانع العلمية التي منعت مدارس القراءات المعاصرة للنص من التدبر يمكن أن ينقسم العلاج على ثلاثة أمور:

أولاً: ضبط مناهج الاستدلال والفهم:

يسلك العلماء في فهمهم للقرآن الكريم والسنة النبوية منهجاً محدد المعالم في الاستدلال؛ ومن أهم قواعده:

١- تقديم الكتاب والسنة على ما سواهما من آراء البشر؛ قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾[النساء: ٥٩].

(١) الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، أركون، ٤٤-٤٥

٢- عدم وقوع التعارض بين نصوص الكتاب والسنة؛ قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾[النساء: ٨٢].

٣- الأخذ بظاهر القرآن الكريم؛ وعدم ترك الظاهر إلا بدليل.

وهناك قواعد أخرى عديدة في الاستدلال ؛ كلها ينبغي لمبتغي التدبر السليم للقرآن أن يلتزمها؛ ليكون تدبره صحيحاً.

ثانياً: **العلم بمعاني القرآن الكريم:**

والعلم بمعاني كلام الله تعالى أول مفاتيح تدبره؛ إذ من لا علم له بالمعاني لا يمكن أن يتدبر القرآن على وجهه الصحيح؛ وقد مرَّ معنا كيف فهم الدكتور محمد شحرور قوله تعالى: ﴿ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ (القدر: ٣).

ثالثاً: نقد تاريخية النص:

كان قول مدارس القراءات المعاصرة بالتاريخية مانعاً من موانع التدبر؛ لأن القول بالتاريخية يقتضي حصر المعاني القرآنية في فترة زمنية ومكانية محددة؛ ولذا فمن أهم العلاجات الوقوف على بطلان هذا القول؛ والذي تبطله اللغة؛ والتي تقتضي بقاء العموميات على عمومها؛ وعدم حصرها بزمن معين؛ ويبطله الاجماع على العمل بنصوص الوحيين دون تقييد لها بزمن معين[1].

(١) من أحسن ما كتب في نقد التاريخية كتاب العلمانيون والقرآن الكريم، للدكتور أحمد الطعان؛ وأصله رسالة دكتوراه.

المطلب الثاني: العلاج الإيماني والتربوي لموانع تدبر القرآن عند مدارس القراءات المعاصرة للنص:

ليس بالعلم وحده يعود الناس من الباطل إلى الحق؛ فمن الناس من يحتاج إلى الموعظة؛ وتقوية الإيمان في قلبه ليرجع عن باطله؛ وأهم الأمور المعينة على التدبر الصحيح لكتاب الله تعالى؛ والتي فيها علاج لأسباب منعت أفراد مدارس القراءات المعاصرة للنصوص من التدبر

أولاً: تعظيم القرآن:

ومن تعظيم القرآن الكريم: معرفة منزلته بين الكتب السماوية، ومعرفة فضائله، والوقوف على وجوه إعجازه؛ قال الإمام النووي رحمه الله تعالى: "أجمع المسلمون على وجوب تعظيم القرآن العزيز على الإطلاق وتنزيهه وصيانته"[1].

وكيف يمكن أن يتدبر القرآن الكريم من لم يعظمه حق تعظيمه ؟!

ثانياً: العلم بالتقصير في تحصيل علوم الشريعة عامة وعلوم القرآن خاصة:

تبين لنا مما سبق ضعف كثير من أفراد مدارس القراءات المعاصرة للنصوص في علوم الشريعة عامة؛ وعلوم القرآن خاصة؛ ومن كانت هذه حاله؛ فإن اعترافه بضعفه وتقصيره مفتاح للعلم بما جهله من معاني كلام الله تعالى؛ وهذا العلم بالضعف في مجال علوم القرآن حاث لصاحبه على بذل المزيد من الجهد.

ثالثاً: إنزال أهل العلم منازلهم:

الحط على أهل العلم معيب؛ ويزيد العيب حين يكون حطاً على أهل العلم بكتاب الله تعالى؛ ويزيد الأمر سواءً حين يكون هذا التنقص لأهل العلم والحط من منازلهم بالباطل.

ولذا فإن من أعظم أعمال القلوب التي ترفع العبد؛ وتفتح له باب الفهم: إكرام أهل العلم؛ وحملته؛ وإنزالهم منازلهم؛ والإفادة منهم[1].

---

(١) التبيان في آداب حملة القرآن (ص: ١٦٤)

الخاتمة: وفيها أهم النتائج والتوصيات

بعد هذه الجولة مع موانع تدبر القرآن عند مدارس القراءات المعاصرة للنص وعلاجها؛ أوجز الموانع التي تمنع أفراد هذه المدارس من تدبر القرآن الكريم فيما يلي:

١- ضعف تعظيم القرآن الكريم.
٢- الفهم الخاطئ لمعاني كلام الله تعالى.(مثل تفسير ليلة القدر عند شحرور)
٣- قلة العلم بعلوم القرآن ، واللغة وسائر العلوم الخادمة للتفسير.
٤- الزهد والتزهيد في كتب التفاسير.
٥- القول بخلق القرآن أو بأنه منتج بشري.
٦- تأثير النشأة الماركسية المادية.
٧- الخلل في منهج فهم النص.
٨- القول بتاريخية النص القرآني.

وأما العلاج المساعد لمن اتبعه من أفراد تلك المدارس على التدبر؛ فهو:

١- ضبط مناهج الاستدلال والفهم.
٢- العلم بمعاني القرآن الكريم.
٣- نقد تاريخية النص.
٤- تعظيم القرآن.
٥- العلم بالتقصير في تحصيل علوم الشريعة عامة وعلوم القرآن خاصة.
٦- إنزال أهل العلم منازلهم.

والحقيقة أن هذه الورقة البحثية تفتح الذهن على أهمية الموضوع؛ ومزيد تناوله، لذا يوصي الباحث بتناول الموضوع بصورة أوسع؛ من خلال رسائل علمية أو أبحاث وندوات متخصصة. والله الموفق لكل خير.

والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً

---

(١) غير خاف أن الإكرام لا يقتضي تقليدهم واتباعهم في صوابهم وخطئهم.

قائمة المصادر والمراجع

١-الإتقان في علوم القرآن؛ للإمام عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي؛ طبعة مجمع الملك فهد؛ الأولى ١٤٢٦هـ

٢-البحر المحيط في التفسير؛ أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي؛ دار الفكر؛ ١٤٢٠ هـ.

٣-تاريخية الفكر العربي الاسلامي، محمد أركون؛ ترجمة هاشم صالح؛ المركز الثقافي العربي؛ الطبعة الثانية؛ ١٩٩٦م.

٤-التراث والحداثة دراسات ومناقشات،. الدكتور محمد عابد الجابري؛ مركز دراسات الوحدة العربية؛ الطبعة الأولى؛ ١٩٩١م.

٥-التفسير والمفسرون؛ الدكتور محمد السيد حسين الذهبي؛ مكتبة وهبة؛ الطبعة السابعة؛ ٢٠٠٠م.

٦-تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان؛ عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي؛ تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق؛ دار الرسالة؛ الطبعة الأولى؛ ١٤٢٠هـ.

٧-جامع البيان عن تأويل آي القرآن ؛ محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري؛ تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر؛ دار هجر للنشر والتوزيع؛ الطبعة الأولى؛ ١٤٢٢هـ.

٨-الدولة والمجتمع، الدكتور محمد شحرور؛ دار الأهالي للطباعة والنشر في دمشق؛ دون تحديد الطبعة والتاريخ.

٩-الدين والثورة في مصر؛ الدكتور حسن حنفي؛ مكتبة مدبولي في القاهرة ؛ بدون تحديد التاريخ.

١٠- رسم المصحف دراسة لغوية تاريخية، غانم قدوري الحمد؛ الجمهورية العراقية: اللجنة الوطنية لإحتفال بمطلع القرن الخامس عشر الهجري؛ الطبعة الأولى؛ ١٤٠٢هـ.

١١- سير أعلام النبلاء ؛ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي؛ تحقيق مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط؛ دار الرسالة؛ الطبعة الثالثة ، ١٤٠٥ هـ.

١٢- العلمانيون والقرآن الكريم؛ الدكتور أحمد الطعان؛ دار ابن حزم للنشر والتوزيع في السعودية؛ الطبعة الأولى؛ ١٤٢٨هـ.

١٣- علوم القرآن في مقدمات التفاسير؛ محمد صفاء شيخ ابراهيم حقي؛ مؤسسة الرسالة؛ الطبعة الأولى؛ ١٤٢٥هـ.

١٤- الفرق والمذاهب المسيحية منذ البدايات حتى ظهور الإسلام، تأليف: الدكتورة نهاد خياط؛ دار الأوائل؛ بدون تاريخ.

١٥- الفكر الاسلامي نقد واجتهاد، محمد أركون، ترجمة هاشم صالح؛ المؤسسة الوطنية للكتاب في الجزائر؛ بدون تاريخ.

١٦- الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، محمد أركون، ترجمة هاشم صالح؛ دار الساقي؛ الطبعة الأولى؛ ١٩٩٩م.

١٧- القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب، محمد أركون، ترجمة هاشم صالح؛ دار الطليعة؛ الطبعة الثانية؛ ٢٠٠٥م.

١٨- القرآن والمرأة إعادة قراءة النص القرآني من منظور نسائي، آمنه ودود؛ ترجمة: ساميه عدنان؛ الطبعة الأولى؛ ٢٠٠٠م.
١٩- قضايا في نقد العقل الديني، محمد أركون، ترجمة هاشم صالح؛ دار الطليعة؛ دون تحديد الطبعة والتاريخ.
٢٠- الكتاب والقرآن، الدكتور محمد شحرور؛ دار الأهالي للطباعة والنشر في دمشق؛ دون تحديد الطبعة والتاريخ.
٢١- لسان العرب؛ محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور؛ دار صادر؛ الطبعة الثالثة؛ ١٤١٤هـ.
٢٢- الفروق اللغوية؛ أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري؛ تحقيق: محمد إبراهيم سليم؛ دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع في القاهرة؛ بدون تاريخ.
٢٣- مدخل إلى القرآن الكريم، الدكتور محمد عابد الجابري؛ مركز دراسات الوحدة العربية؛ الطبعة الأولى؛ ٢٠٠٦م.
٢٤- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ؛ محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية؛ دار الكتب العلمية؛ بدون تاريخ.
٢٥- مقاييس اللغة ؛ أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني؛ تحقيق: عبد السلام محمد هارون؛ دار الفكر؛ الطبعة الأولى؛ ١٣٩٩هـ.
٢٦- من العقيدة إلى الثورة؛ الدكتور حسن حنفي؛ المركز الثقافي العربي في بيروت؛ الطبعة الأولى؛ ١٩٨٨م.
٢٧- مناهل العرفان في علوم القرآن؛ محمد عبد العظيم الزُّرْقاني؛ مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه؛ الطبعة الثالثة؛ بدون تاريخ.
٢٨- الموسوعة الميسرة في المذاهب والأديان المعاصر ؛ الندوة العالمية للشباب الإسلامي بإشراف الدكتور: مانع الجهني؛ دار الندوة العالمية للنشر؛ الطبعة: الرابعة، ١٤٢٠ هـ
٢٩- موقف المدرسة العقلية من السنة النبوية ؛ الأمين الصادق الأمين؛ مكتبة الرشد؛ الطبعة الأولى؛ ١٤١٨هـ
٣٠- نظرات في القراءة المعاصرة للقرآن الكريم في دول المغرب العربي؛ بحث مقدم لمؤتمر القراءات المعاصرة للقرآن الكريم المنعقد في جامعة شعيب الدكالي في المغرب.
٣١- نقد الخطاب الديني، الدكتور نصر حامد أبو زيد؛ دار سينا للنشر بالقاهرة؛ الطبعة الثانية؛ ١٩٩٤م
٣٢- الوحي والقرآن والنبوة، هشام جعيط؛ دار الطليعة في بيروت؛ الطبعة الثانية؛ ٢٠٠٠م.
٣٣- وثاقة نقل النص القرآني، الدكتور محمد حسن جبل؛ دار الصحابة للتراث بطنطا؛ بدون تاريخ.